

- العنوان: المعمورة بين الخراب والتعمير خلال العصر الوسيط
- المصدر: أعمال الندوة الوطنية: قصبة المهدية: تراث ومؤهلات
- الناشر: كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيظرة
- المؤلف الرئيسي: أسكان، الحسين
- محكمة: نعم
- التاريخ الميلادي: 2003
- مكان انعقاد المؤتمر: القنيظرة
- الهيئة المسؤولة: المغرب . جامعة ابن طفيل . كلية الآداب والعلوم الإنسانية
- الشهر: أبريل
- الصفحات: 27 - 36
- رقم MD: 325608
- نوع المحتوى: بحوث المؤتمرات
- قواعد المعلومات: HumanIndex
- مواضيع: دولة الموحدين، المغرب، مدينة المعمورة، التخطيط العمراني، الهندسة المعمارية، العصور الوسطى، دولة المرابطين، التشييد والبناء، الحروب

المعمورة بين الخراب والتعمير خلال العصر الوسيط

الأستاذ الحسين اسكان
المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية - الرباط

مقدمة :

تميز تاريخ مدينة المعمورة خلال العصر الوسيط بظاهرة تناوب الخراب وإعادة التعمير، وهي ظاهرة تكررت عدة مرات، تكررت على الأقل مرتين الأولى في بداية العصر الوسيط والثانية عند نهايته. فما هو سبب تأرجح المدينة بين الخراب وإعادة التعمير خلال العصر الوسيط، ولماذا كانت المدينة تجدد وتتألق مع بروز دولة مركزية قوية، وتتعرض للخراب أثناء ضعف الدول الحاكمة وتتأثر أكثر من غيرها من المدن المعاصرة لها بالظرفية السياسية ؟

وقبل الجواب عن هذا التساؤل وتناول هذه الظاهرة والتطورات التي شهدتها المدينة خلال العصر الوسيط، لا بد من كلمة قصيرة عن طبيعة المعلومات الواردة في المصادر التاريخية التي تعرضت لذكر المدينة.

تتميز المعلومات عن مدينة المعمورة في المصادر الوسيطية بأنها قليلة جدا، ومكررة، تناقلتها المصادر خاصة الجغرافية بعضها عن بعض. ورغم هذه القلة والتكرار يمكن استغلال هذا النزر القليل منها بقراءتها على ضوء سياق التاريخ الجهوي وعلى ضوء الظرفية التاريخية العامة خلال العصر الوسيط، ونبدأ بإشكالية الاسم.

1 - الاسم : المعمورة من بين المدن المغربية القلائل التي حملت اسما معربا كالبصرة خلال العصر الوسيط، هل هو اسم مترجم عن مصطلح أمازيغي كما هو الشأن للعديد من الأماكن كالهبط مثلا، أم سميت بذلك من باب التفاؤل أي

نقيض للخراب ؟ لا يتوفر في المصادر التاريخية ما يساعد على الإجابة، لكن يبدو أنها سميت بذلك لأن الموضع الذي بنيت عليه كان خرابا غير مأهول وخال من العمارة¹، مثلها في ذلك مثل مدينة أخرى وهي مدينة المصيصة التي توجد قرب أنطاكية كانت قد تعرضت للخراب وجددها المنصور العباسي سنة 140 هـ وسميت بالمعمورة من باب التفاؤل². وإلى جانب هذا الاسم نجد المدينة مرتبطة باسم آخر هو حلق الوادي نسبة لوقعها على نهر سبو³. والتساؤل المطروح هو متى جددت المدينة، ومن أعاد تميمها ؟

2- إشكالية تأسيس المدينة: جل المصادر المتأخرة عن الفترة الوسيطة

مثل كتابات الحسن الوزان ومارمول وغيرهما تشير إلى أن المعمورة كانت من تأسيس الموحدين وبالضبط في عهد يعقوب المنصور⁴. وهو إدعاء غير صحيح تفنده المصادر المعاصرة، فقد ذكر البكري أنها كانت مركزا مهما قبل منتصف القرن⁵ هـ، كمرسى ضمن مراسي ساحل بحر الظلمات من نول لمطة إلى طنجة⁵، كما كانت معروفة تحت الحكم المرابطي إذ ذكرت عرضا في المصادر بمناسبة التقاء يوسف بن تاشفين بابن عباد واستقباله "بالمعمورة من ملقى وادي سبو"⁶، بل إن صاحب نشر المثاني المتأخر ذهب إلى القول إن مؤسسها هو المهدي الشيعي على

1 انظر مادة عمر في لسان العرب

2 البلاذري: فتوح البلدان ج 1 ص 170، معجم البلدان ج 5 ص 159

3 الناصري أبو العباس أحمد: الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى، تحقيق جعفر ومحمد الناصري، دار الكتاب - الدار البيضاء، 1954 ص 5، 74، 50

4 الوزان الحسن: وصف لإفريقيا، ترجمة محمد حجي، ومحمد الأخضر، الرباط 1980 ص 166، مارمول كريبخال: إفريقيا. ترجمة محمد حجي و آخرون مكتبة المعارف للنشر والتوزيع. الرباط 1984م، ج 2 ص 136

5 البكري أبو عبيد الله: المسالك والممالك: "كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب" نشرة و ترجمة دوسلن librairie d'Amérique et d'Orient: 1965 Adrienne-Maison neuve. Paris. ص 87

6 ابن أبي زرع علي الفاسي: الأنيس المطرب بروض في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ط. دار المنصور للطباعة والنشر، 1973 ص 152

يد بعض عماله على المنطقة في منتصف القرن 4 هـ، وهو قول يصعب تأكيده. ويمكن الخروج من المعلومات القليلة والمتاحة في المصادر أن هذا المركز العمراني كان قديماً أعيد تعميره قبل عصر الموحدين أي قبل القرن 5 هـ، إما في عهد الأدارسة في القرن الثالث الهجري كالبصرة شمالها أو أعيد تجديده في عهد الفاطميين في القرن 4 هـ كما أشار إليه صاحب نشر المثاني، وربما تأسيسها في هذه المرحلة هو ما يفسر اسمها المغرب، لكن هل يتعلق الأمر بتأسيس قلعة بجوار تجمع بشري؟ مهما كان تاريخ إعادة تعميرها سواء في القرن 3 هـ أو في القرن 4 هـ، فالمؤكد أنها لم تظهر بشكل بارز على مسرح الأحداث إلا في الفترة الممتدة من القرن 5 هـ إلى أوائل القرن 9 هـ وخاصة خلال العصر الموحيدي في القرن 6 هـ، إذ عرفت ازدهاراً ملحوظاً وأصبحت أهم وأكبر ميناء لصنع السفن في الغرب الإسلامي آنذاك، فما السرفي ذلك؟

3 - عوامل ازدهار المدينة في العصر الموحيدي :

من مظاهر ازدهار المعمورة في العهد الموحيدي أنها كانت توجد بها أكبر دار لصناعة السفن منذ سنة 558 هـ حين أنشأ بها عبد المومن 120 سفينة في "حلق المعمورة ومرساها"⁷ ضمن 400 سفينة التي أمر بإنشائها بالمغرب والأندلس أي ما يعادل 30 في المائة من مجموع السفن المصنوعة بالغرب الإسلامي. وبالإضافة إلى كونها أكبر ميناء لصنع السفن كانت كذلك تشكل هي ورباط الفتحة قاعدة عسكرية تتجمع فيها الحركات الموحدية الضخمة المتوجهة نحو الأندلس، ففي سنة 558 هـ، أثناء استعدادات عبد المومن للجواز ضم جيشاً من 500 ألف مقاتل "ضاقت بهم الأرض، وانتشرت العساكر من عين غبولة إلى عين خميس، واستدارت راجعة إلى حلق معمورة"⁸.

7 - نفسه ص 201

8 - نفسه ص 202، ابن صاحب الصلاة عبد الملك: تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط 3 سنة 1987 ص 147، الناصري: الاستقصا...م.س: ج 2 ص 144

وكانت كذلك مكانا لتجميع الأقوات والعلوفات في طرق الحركات للأندلس كما يظهر عند استعدادات عبد المومن لغزو الأندلس سنة 557هـ إذ "أعد من القمح والشعير للعلوفات والمواساة للعساكر على وادي سبو بالمعمورة المذكورة ما عاينته مكدسا كأمثال الجبال، بما لم يتقدم للملك قبله ولا سمعنا به في جيل من الأجيال، بقي في ذلك الموضع من عام سبعة وخمسين إلى عام اثنين وستين وخمسمائة، حتى فني في أكداسه وعاد ترابا ورمادا باحتراقه بعضه في بعض وإفساد الزمان فسادا له"⁹، وكان يتم تجميع الأقوات بها وحملها بواسطة القوارب واستغلال النهر.

ويعود هذا الازدهار لمدينة المعمورة في العصر الموحيدي إلى أمرين : الأول هو العوامل الطبيعية التي تتجلى في مؤهلات موقعها وموضعها، والثاني هو الظرفية التاريخية خلال القرن 6 هـ التي أدت إلى إبراز تلك المؤهلات الطبيعية للمدينة.

أ - **المؤهلات الطبيعية** : في مقدمة هذه المؤهلات نجد الموقع، فقد أسست المعمورة على بعد ميل ونصف من مصب النهر حسب الحسن الوزان¹⁰ و"على نصف فرسخ من شاطئ المحيط قرب مصب نهر سبو لحماية مدخل هذا النهر من دخول سفن الأعداء إليه"¹¹. ولهذا يطلق عليها حلق الوادي أحيانا، فهذا الموقع داخل النهر جعل ميناء المعمورة مأمونا وبعيدا عن الرياح والأمواج العاتية للمحيط الأطلسي، ويزيد من أهمية هذا الميناء موقعه على مصب نهر سبو الذي كان يستغل في الملاحة النهرية حتى مدينة فاس حيث كانت تستعمل السفن والقوارب الصغيرة¹²، وتدخل السفن الكبيرة مسافة كبيرة عند سافلة

9 - ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة...م.س، ص 148

10 - الوزان: وصف إفريقيا...م.س. ج 1 ص 166، مارمول: إفريقيا...م.س. ج 2 ص 136

11 - مارمول: إفريقيا...م.س. ص 136

12 - الجزنائي علي: جني زهرة الآس في تاريخ بناء مدينة فاس. المطبعة

الملكية - الرباط 1972، ص 37

النهر لعدة كيلومترات، غير أنه يبدو أن استغلال النهر للملاحة قد توقف قبل القرن 16م أي قبل عصر الحسن الوزان ومارمول اللذين لاحظا أنه "يمكن السفر على متنه إلى فاس لو كان الناس عقلاء، لأن ذلك سيجعلهم لا يشترون القمح المحمول إليهم برا من أزغار بضعف ثمنه"¹³. كما يستغل النهر كذلك في نقل أخشاب الأرز والصنوبر القادمة من غابات الريف التي تدفع فيه كما حدث في عهد أبي الحسن المريني¹⁴، كما كانت له أهمية اقتصادية من حيث صيد السمك، كان النهر مشتهرا بصيد الشبل والقرب الكبير الذي يصل وزنه إلى قنطار والشولي¹⁵. وتزود من أسماك النهر مدينة فاس ومكناسة وغيرها من المدن الأخرى بثمن بخس¹⁶. كما أن مرسى المعمورة لا يبعد عن الأندلس إلا بمرحلة يوم وليلة فقط حسب صاحب الاستبصار فالمسافة بين رباط الفتح والمنكب بالأندلس هي مرحلة يوم وليلة¹⁷.

ويرجع السبب في كونها أنها أكبر ميناء لصنع السفن إلى أمرين : الأول توفر ظهرها على أكبر غابة بالسهول الأطلسية لدرجة أنه كانت تجلب منها الأخشاب لدار الصناعة بسلا في العهد المريني¹⁸ التي كانت لا تتوفر مثلها على نهر بوركراك، والثاني الوادي التي تنقل بواسطته الأخشاب من جهات عديدة خاصة من الريف، التقاء نهري ورغة وسبو بموضع المعمورة¹⁹، بل كانت تصنع

13 - الوزان : وصف إفريقيا...م.س. ج2 ص249 مارمول : إفريقيا...م.س. ج1 ص36

14 - الجزنائي : جني زهرة الآس...م.س. ص38

15 - نفسه ص39، جذوة ص48 مجهول : - كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار. نشر الدكتور سعد زغلول عبد الحميد. الإسكندرية 1958 ص184-185

16 - مارمول : إفريقيا...م.س. ج1 ص36

17 - مجهول : الاستبصار...م.س. 140 وما بعده

18 - الناصري : الاستقصا...م.س. ج3 ص223

19 - نفسه ص511

20 - نفسه ص37 الجزنائي : جني زهرة الآس...م.س.

فيه السفن بمنطقة الجبال قرب فاس²⁰. هذه المؤهلات لموقع المعمورة أبرزتها الظروف التاريخية الملائمة خاصة في القرن 6 هـ

ب - الظرفية التاريخية في العصر الموحدى: يدخل إعادة تعمير

المعمورة وتجديد قصبتها من طرف الموحدين في إطار تجديد وتهيئة الطريق الساحلي المؤدى للأندلس (مراكش، رباط الفتح، قصر مصمودة، إشبيلية) ضمن سياستهم الجهادية، لأن هذه الطريق كانت تسمح باستقبال جيوشهم الضخمة العدد والتي كانت تتراوح أعدادها أحيانا بين 400 و 600 ألف من الجنود، والتي كانت لا يسعها الطريق المرابطي القديم المار بالمدن الداخلية (مراكش، فاس، سبتة، قرطبة) ولا يستطيع تزويدها بكل المرافق والحاجات الضرورية لها²¹. كما يدخل اهتمامهم بها خلال القرن 6 هـ في إطار سياستهم البحرية الرامية إلى تهيئة الواجهة البحرية الأطلسية لإمبراطوريتهم خاصة الممتدة من غرب الأندلس إلى أسفي لمواجهة مملكة البرتغال القوة البحرية الصاعدة التي ظهرت في النصف الثاني من القرن 12 م غرب الأندلس²² ولهذا اتخذوا إشبيلية عاصمة إقليمية للأندلس عوض قرطبة الداخلية. وهذه السياسة فرضت عليهم تجديد العديد من المدن على الطريق الغربي مراكش سلا قصر مصمودة منها القصر الكبير ومنها بناء الرباط وهي مدينة كبيرة يبلغ طولها أكثر من فرسخ²³ سماها الموحدون رباط الفتح²⁴ والتي كانت تتوفر على أضخم وأوسع مسجد بالغرب الإسلامي، وقد نسب المؤرخون بناءها ليعقوب المنصور الذي ينسبون له أيضا بناء المعمورة. فهذه

21 - عالجنا هذه المسألة في مقالنا: "الحركات الموحدية" وهو لم ينشر بعد.

22 - Picard Christophe : LOcéan Atlantique Musulman de la conquête arabe a l'époque Almohade. Maisonneuve & Laros, édition UNESCO.Paris 1997. p 131-183

23 - نفسه ص 384

24 - علل المراكشي إطلاق هذه التسمية عليها بوصية للمهدي، المراكشي عبد الواحد: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، نشره محمد سعيد العريان و محمد العربي العلمي. ط دار الكتاب - ط السابعة

1978 ص 506-507

هي المرة الأولى في تاريخ المغرب الوسيط الذي تهتم فيه الدولة المركزية بالبحر وبالواجهة الأطلسية، فاستفادت المعمورة من هذا التفتح، واستمر ازدهار المدينة أقل من ثلاثة قرون حيث دمرت من جديد أوائل القرن 9 هـ

4 - خراب المعمورة أوائل القرن 9 هـ :

في أوائل القرن التاسع الهجري خربت المعمورة وأصبحت أنقاضاً أثناء حروب السعيد مع ملك فاس²⁵ وهو السعيد بن عبد العزيز حسب ابن غازي والذي حكم بين سنتي (800-823 هـ)²⁶، كما خربت عدة مدن بإقليم الغرب، واستمرت فترة خرابها أكثر من قرن من الزمن، نظراً لغياب سلطة مركزية قوية يمكنها التغلب على السلبات الطبيعية التي كانت آنذاك تقف عائقاً دون تطورها :

أولاً : موضع المدينة على الضفة اليسرى لنهر سبو الذي جعلها معزولة عن ظهيرها لأنه لا يمكن عبوره شتاء وربيعاً إلا بالفلك حسب الإدريسي²⁷، ويصبح حاجزاً طبيعياً للتنقل أكثر من 6 أشهر.

ثانياً : توجد بجوار المدينة غابات البلوط الفليني وتنتج كميات كبيرة من البلوط يباع بفاس وغيرها، إلا أنه كانت توجد بهذه الغابة أسود من أكثر أسود إفريقيا ضراوة تفترس الناس والدواب، لرجة أن الملوك اعتادوا أن يصيدوها كلما مروا بهذه المنطقة كما فعل أبو عنان عندما صاد الأسد بغابتها²⁸، ويؤكد ابن بطوطة أن الأسد خرج على الجيش بوادي النجارين من المعمورة بحوز سلا قطعنه أبو عنان²⁹.

25 - مارمول : إفريقيا...م.س. ص 136

26 - ابن غازي محمد بن أحمد العثماني : الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون ، مطبعة الأمنية بالرباط 1952 ص الناصري : الاستقصا...م.س.ج 4 ص 93-94

27 - الشريف الإدريسي أبي عبد الله محمد الحمودي الحسني : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق . ط. عالم الكتاب - بيروت ، ط 1. سنة 1989 ص 350-351

28 - ابن الحاج النميري : فيض العباب ، تحقيق محمد ابن شقرون ، الرباط 1984 ص 44 ، ص 13 لاشيء فيها.

29 - ابن بطوطة محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي : تحفة النظار في غرائب الاقطار وعجائب الأمصار ، تحقيق علي المنتصب ، بيروت - لبنان ، ط. 2 ، سنة ج 2 ص 819

ثالثا : لا تتوفر على ظهور فلاحى يؤمن تزويدها بالمواد الفلاحية لأن أغلب الأراضى المحيطة بها رملية قاحلة باستثناء الأراضى القريبة من النهر والذى كانت فى القرن 10 تحت نفوذ قبيلة بنى مالك من سفيان³⁰. لهذه العوامل بقيت المعمورة مدينة صغيرة كما لاحظ الحسن الوزان ولم تستطع أن تتطور إلى مدينة كبيرة لأن موضع بنائها لا يوفر الإمكانات الضرورية لتطورها. وهذه السلبيات الطبيعية لموضعها ربما هى التى تفسر كون المعمورة آخر مدينة استولت عليها مملكة البرتغال على الساحل الأطلسى، بعد أن استولت على عدة مدن شمالها وجنوبها³¹ كما هو معروف.

وآخر محاولة لإعادة تعميرها بعد قرن من الخراب عند نهاية العصر الوسيط وبداية العصر الحديث ارتبطت بظهور قوة بحرية جديدة بالمحيط الأطلسى هى مملكة البرتغال، وذلك عندما حاول ملكها الاستيلاء على مدخل النهر وإعادة تعميرها سنة 921 هـ وهى المحاولة التى شهدتها الحسن الوزان، وكان أهل فاس يعتقدون أن استرجاع المدينة تم بفضل تحبيس كتاب الشفاء للقاضى عياض على مساجد مدينتهم³².

خلاصة: يعود ازدهار المعمورة فى الفترة الممتدة من القرن 6 إلى بداية القرن 9 هـ إلى عوامل منها مؤهلات موقعها الجغرافى وإلى ظروف تاريخية تتمثل فى وجود دولة مركزية تستغل تلك المؤهلات كالدولة المرابطية والموحدية والمرينية، فكان للمدينة إشعاع جهوى وعلى مستوى الغرب الإسلامى بسبب إمكانات موضعها، غير أنه لم يكن لها نقص الإشعاع على المستوى المحلى نظرا

30 - مارمول: إفريقيا...م.س. ج2 ص 136، وانظر أعمال ندوة: منطقة الغرب، المجال والإنسان، نظمتها كلية الآداب بالكنيطرة، أيام 23، 24، 22 أكتوبر 1991، منشورات نفس الكلية

31 - الناصرى الاستقصا...م.س. ج4 ص 110

32 - المقرئ أحمد التلمسانى: أزهار الرياض فى أخبار عياض، طبعة صندوق إحياء التراث الإسلامى، الرباط 1978. ج 5 ص 89، 85

للسلبات الطبيعية لموضعها السابقة الذكر والتي شكلت عائقا لم يسمح بنمو المدينة وتطورها من مدينة صغيرة إلى مدينة متوسطة أو كبيرة، لذا كان مصير المدينة مرتبطا بقوة سياسية تستطيع استغلال تلك الإمكانيات الطبيعية وهو ما يفسر جزئيا ظاهرة تناوب الخراب والتعمير عليها طيلة العصر الوسيط وعدم حدوث تراكم في عمرانها طيلة الفترة.

